

الجذور الإسلامية لمذهب الأشراق

ومذاهب قدماء فارس وشعائر الكلدان وتعاليم الاسلام والصابئة . وفي الوقت نفسه نرى ان اميل معلوف ينهب في الرد على القائلين بهذا الرأي الى « ان ما يقال من ان اعمال السهروردي انتقائية انما قيل قبلا في اعمال آباء الكنيسة امثال اورجنس (ت ٢٥٤ م) وغريغوريوس ينص Gregory of yangssa (ت ٣٩٤ م) لان مؤلفاتهم تضمنت عبارات نكتية مستقاة من الافلاطونية والروايفية وغيرهما من المدارس ذات الافكار المضطربة . وقد نبه باحث حصيف هو Werner Jaeger الى ان عقائد غريغوريوس وان كانت تعتمد مباحث الاقدمين فينبغي الا توسم بميسم الانتقاء « لفظلة انتقاء يصح ان نعتت اتجاهها فكريا لم يعرف الا الجمع ولم يوفق الى الابتكار ، لذلك تضمنت هذه اللفظة معنى تحقيريا لا ينطبق على فلسفة السهروردي ولا على اتباعه الاشراقيين ، فهؤلاء وان نهلوا من مذاهب متفرقة مادة لفكرهم ، قد ابدعوا فلسفة ظلت عظيمة الاثر في تعاليم الشيعة في ايران الى يومنا هذا » (٥)

ولئن اختلف الباحثون حول كون « المذهب الاشراقي » الذي وضع اسمه السهروردي مذهبيا تليفيا او مذهبيا مبتكرا الا انهم اتفقوا فيما يبدو على انه يستند في اصوله الى مناهل شرقية فارسية وغربية يونانية على السواء . وهذا المذهب في نظرنا ينطلق بالدرجة الاولى من جوهر التعاليم الاسلامية التي تقوم على اساس وجود الله تعالى ووحدانيته ، وعلى الايمان بنبوة محمد عليه السلام ، وبالبعث والعقاب والثواب . كما ان للآيات القرآنية حضورا مباشرا وحسيا في معظم مؤلفات السهروردي (٦) الذي يدعو السالك بقوله : « عليك بقراءة القرآن مع وجد وطرب وفكر لطيف ، واقرا القرآن كأنه ما انزل الا في شأنك » .

★ ★ ★

لا شك ان مذهب السهروردي من خلال مؤلفاته يمثل فكرا ذا

(٥) كتاب اللوحات للسهروردي - تحقيق اميل معلوف - بيروت - سنة ١٩٦٩ - ص ١٥ - ١٦ .
(٦) راجع : التلويحات - نشرة كوربان ، في كل من الصفحات : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٣ . وراجع ايضا المطارحات نشرة كوربان ايضا في كل من الصفحات : ٣٦١ ، ٤١٩ ، ٤٥٢ . وراجع ايضا حكمة الاشراق نشرة كوربان في كل من الصفحات ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

ان المطلع على معظم ما كتبه الباحثون في نجاح السهروردي من مستشرقين وعرب - وهم قلائل على اية حال - يشعر بثقل المسؤولية اذا ما اراد ان يعطي حكما جديدا في هذا النتاج . لا سيما اذا طالعه رأي كراي الاستاذ كوربان السني يرى « ان الشرح الكامل لانتاج السهروردي في مجموعه لا يفترض معرفة المؤلفات اليونانية فحسب ، وكيفية انتقالها الى العرب عن طريق الترجمات السريانية بل وايضا يفترض معرفة الادب الايستناقي عامة والادب الفهلوي المتأخر ، ومثل هذا الشرح او التحليل يجب عليه ايضا ان يحسب حسابا لما نعرفه عن اللاهوت والليتورجيا الفلكية عند الصابئة ، لان بعض التراتيل التي وجهها السهروردي الى ملائكة الافلاك في مائتة ظاهرة معها (١) كما يجب اخيرا ان نحلل حالة الفكر الفلسفي في الاسلام بعد تأثير نقد الغزالي ، وهو نقد لعله ان يكون اشد افعالا من نقد كنت ، لو جاز لنا ان نقارن بينهما ، فان فعلنا هذا كله ، نكون قد جمعنا مواد ذات اهمية كبرى بيد ان الغاية الاخيرة التي هدف اليها السهروردي والقصد الذي يجعل معنى كل هذه العناصر في وحدتها حاضرا بينا ان يكون قد ظهر لنا بعد ، فهذا القصد يجب ان نبحث عنه في اتجاه آخر » (٢) . والمعرفة بكل هذه المناهل الثقافية التي اشار اليها كوربان قد تقود الى القول بان مذهب السهروردي الاشراقي ما هو الا مذهب تليفيا كما ذهب دي بور (٣) في مقالته عن الاشراقيين وفان دن برغ (٤) في مقاله عن السهروردي ، فالسهروردي في نظرهما لم ينهب في التفتيش عن الحقيقتين مذاهب واضحة كما كانت الحال عند الغزالي مثلا ، ولم يتمرج في تناول الافكار والفلسفات السابقة تدرجا منهجيا نستطيع من خلاله ان نتبين سيرة فكرية نامية ، بل ان مذهبه خلافا لذلك يقوم على الجمع والتوفيق بين مذاهب اليونانيين المتأخرين من اتباع افلاطون

(١) التراتيل المقصودة هي « الواردات والتقدسات » كتاب في النجوم وتقديسها على الطريقة اليونانية كتبها السهروردي على غرار كتاب الفخر الرازي « السر المكتوم في طيات النجوم » وكتاب « غاية الحكيم » للجرطي ، ويذكر كوربان هذا الكتاب للسهروردي باسم تقدسات الشيخ الشهيد .
(٢) شخصيات قلقة في الاسلام - عبد الرحمن بدوي - ص ٢٠٢ - ١٠٣ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية - طبعة طهران - المجلد الثاني - ص ٢١٢ .
(٤) المصدر السابق - المجلد الثاني عشر - ص ٢٩٨ .

شخصية مميزة في تاريخ الثقافة الاسلامية» . وذلك يفودنا بطبيعة الحال الى طرح السؤال التالي وهو : ما مبلغ علمنا الحقيقي بانشاء مؤلفات السهروردي ؟

هناك ثبت بمؤلفات السهروردي يرجع اليه كل من السهرزوري (٨) وبروكلمان (٩) وريتزر . والثبت الذي يزودنا به ريتزر هو ثبت ثمين بثلاث وتسعين رسالة وفيه تحليل ووصف لمخطوطات السهروردي في اسطنبول . (١٠)

كما ان لدينا ثلاثة تصنيفات تكتب السهروردي ضمن دراسات معاصرة حول المذهب الاشراقي . الاول هو تصنيف ماسينيون (١١) والثاني هو تصنيف كوربان (١٢) والثالث هو تصنيف الدكتور محمدعلي ابوريان (١٣). وهذا الاخير يورد لنا باسما واحد وخمسين مؤلفا يضاف اليها ثمانية عشر شرحا على بعض هذه المؤلفات . والدكتور ابوريان لم يراع في سرده لاسماء كتب السهروردي اي اعتبار تصنيفي الاحكام الكتاب ، اذ ابتداء بذكر الكتب الكبيرة . ثم ذكر بعد ذلك الرسائل الصغيرة ، وبعدها الكتب التي يشك الباحثون في نسبتها الى السهروردي .

بينما نجد ان ماسينيون قد افترض في تصنيفه وجود مراحل فكرية عند السهروردي تفصل الواحدة عن الاخرى ، ومن الجائز انه قد تأثر في تصنيفه بقول السهروردي في مقدمة حكمة الاشراق وهو : « وقد ثبت لكم قبل هذا الكتاب وفي اثباته عند معاودة القواطع عنه كتبنا على طريقة المشائين ولخصت فيها قواعدهم ، ومن جملتها المختصر الموسوم « بالتلويحات اللوحية والعرشية » المشتمل على قواعد كثيرة ، ولخصت فيها القواعد مع صغر حجمه ، ودونه « للمحات » وصنفت غيرهما ، ومنها ما رتبته في ايام الصبا » (١٤) .

لذلك نجد تصنيف ماسينيون يقوم على ثلاثة مراحل ، فهناك : عهد الشباب وهو العهد الاشراقي ، ثم العهد المشائي ، ثم العهد السينيوي الافلاطوني .

بينما نجد ان كوربان قد قسم كتب الشيخ الى اربعة اقسام : ١ - المؤلفات الكبرى ، وهي التي نعبر في مجموعها عن المذهب الاشراقي وهي : اتلويحات - المقامات - المشارع والمطارحات - حكمة الاشراق .

٢ - المؤلفات الصغرى ، وهي التي تتبع بوجه عام معالم المؤلفات الكبرى ، وهي : الالواح العمادية - بستان القلوب - هيكل النور - اعتقاد الحكماء - كلمة التصوف - كشف الغطاء - اللمحات - برونو نامه .

(٨) ثلاث رسائل نشر وترجمة اوتو شبيس وختك ، وفيه النص العربي لترجمة حياة السهروردي بقلم تلميذه السهرزوري الواردة في كتابه نزهة الارواح .

(٩) تاريخ الادب العربي - بروكلمان - ج ١ ، ص ٤٣٦ - ٤٢٨ . الدليل ج ١ ، ص ٧٨١ .

(١٠) A . Ritter , Philogika , IX - Die Vier Suhrawardi (١٠) . 24 . Shihâb al din .. al - Suhrawardi al Maqtul . Band , 1937 , Heft - 3 - 4 , P . 270 - 286

(١١) L . Massignon , Recueil de textes inédits concernant L'histoire de la mystique en pays d'Islam . Paris , 1929 . P . 113 .

(١٢) مجموعة في الحكمة الالهية من مصنفات السهروردي - المجلد الاول ، المقدمة بقلم كوربان .

(١٣) اصول الفلسفة الاشراقية - محمد علي ابوريان - ص ٤٣ - ٥٧ .

(١٤) حكمة الاشراق ، للسهروردي نشرة كوربان ، ص ١٠ .

٣ - الرسائل ، وهي ذات طابع رمزي تهجد الطريق للسالكين ، ومعظمها باللغة الفارسية ، وهي : عقل سرخ - اصوات اجنحة جبرائيل - قصة الغربة الغربية - كلمات ثوقية - لغة النمل - مؤنس العشاق - رسالة في حالة الطفولية - رسالة روزي باجماعت صوفيان - رسالة الطير (وهي ترجمة فارسية لرسالة ابن سينا) - صفيري سيمورغ .

٤ - الواردات والتقدسات ، او تقدسات الشيخ الشهيد ، وهي عبارة عن ابتهالات خاصة يردد الشيخ في كل يوم من ايام الاسبوع ابتهالا مصيئا منها ، وهذه الابتهالات تحمل في لائحة السهرزوري الارقام « ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ »

ويلاحظ ان كوربان في تصنيفه هذا قد استند الى حجم الكتاب ايضا ، فكتب المجموعة الثانية عبارة عن ابحاث نظرية تنفق مع كتب المجموعة الاولى وليس هناك مبرر لجمعها في مجموعة منفصلة الا صغر حجمها .

وميزة تصنيف كوربان ان هذه الكتب التي اوردها قد ثبتت نسبة معظمها الى المؤلف ، ولم يشك الباحثون الا في رسالة اعتقاد الحكماء ورسالة المراج ، وبستان القلوب . (١٥) .

وهذه المصنفات التي ذكرها كوربان وعددها اثنان وعشرون مصنفا ، لا يزال قسم كبير منها مخطوطا ومحموظا في بطون المكتبات . اما المنشور منها فينقسم الى ثلاث فئات :

١ - الكتب الكاملة . ٢ - اجزاء من كتب . ٣ - الرسائل . الكتب الكاملة :

١ - هيكل النور ، نشره محي الدين صبحي الكردي - القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ .

٢ - حكمة الاشراق ، نشره كوربان - طهران ، سنة ١٩٥٢ م .

٣ - اللمحات ، نشره اميل معلوف - بيروت - سنة ١٩٦٩ م . اجزاء من كتب :

نشر هنري كوربان العام الالهية فقط من الكتب التالية : ١ - التلويحات اللوحية والعرشية . ٢ - المقامات . ٣ - المشارع والمطارحات .

وضمها في مجلد واحد تحت عنوان : « مجموعة في الحكمة الالهية من مصنفات السهروردي - اسطنبول - سنة ١٩٤٥ م . الرسائل :

١ - مؤنس العشاق (نص فارسي) نشر ابوشيبس O . Spies . دهلي ، سنة ١٩٣٤ م .

٢ - اصوات اجنحة جبرائيل (ترجمها عن الفارسية الى العربية بول كراوس ، ونشرها كوربان مع مقدمة في المجلة الاسيوية عدد يوليو سنة ١٩٣٥ م .

٣ - لغات موران او لغة النمل (نص فارسي) نشر كوربان - مجلة هرمس سنة ١٩٢٩ م .

٤ - صفيري سيمورغ (نص فارسي) نشر شبيس وختك S . K . Khattak & O . Spies ضمن كتاب ثلاث رسائل شتوتغارت - سنة ١٩٣٥ م . ونشر كوربان ترجمة فرنسية لها في مجلة هرمس ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، سنة ١٩٢٩ م .

٤ - قصة الغربة الغربية ، مقتبسة عن قصة حسي بن يقظان

(١٥) فيما يتعلق بالشك في بعض مؤلفات السهروردي راجع كتاب اللمحات - اميل معلوف ، ص ١٣ - ٢٤ . وراجع ايضا ، اصول الفلسفة الاشراقية ، ص ٤٩ .

العقلي الاسلامي ، والبناء الوجودي للمذهب الاشراقي هو نتيجة لتقد
السهورودي لنظرية العقول العشرة من حيث الكم لا من حيث
الكيف . (١٩) .

ذلك هو المبدأ الاساسي الذي تقوم عليه فلسفة الاشراق وهو
يستخلص من مجموع كتبه النظرية ، اي التلويحات واللمحات والمقاومات
والمطارحات وهيكل النور واخيرا حكمة الاشراق ، وفي هذه الكتب لا
يظهر اثر الميثولوجية الشرقية الا بشكل سطحي جدا لا يتجاوز ذكر
اسماء حكماء الشرق من فرس ومصريين (٢٠) . مع ورود الفاظ مثل
النور الشعشعاني - النور الفاهر - اناسوت - الرهبوت . بينما
يمدو الاثر اليوناني كما عرفناه في المشائية الاسلامية واضحا جدا
في الكتب الخمسة الاولى ، اما في « حكمة الاشراق » فيظهر الاثر
الشرقي في اتخاذ النور مبدأ للبحث ، كما يظهر في ابراز عالم
« المثل المعلقة » (٢١) وهو عالم وسط بين العالم الحسي والعالم
العقلي . ويجدر التمييز هنا بين المثل المعلقة عند السهورودي
والمثل الافلاطونية التي لا علافة لها بالمادة اطلاقا . واما الاثر اليوناني
فيبدو في حكمة الاشراق من خلال منهج البحث وطريقة الاستدلال .

ويختلف الامر في الرسائل ، اذ ان الميثولوجية الشرقية بينة
الاثر سواء في الرموز المستعملة او في البناء العنصري (٢٢) . كما نجد
في رسالة « مؤنس العشاق » ، وفي « قصة الغربة القريبة » وفي
« اصوات اجنحة جبرائيل » ونستثني من الرسائل رسالة في « اعتقاد
الحكماء » اذ انها تلتحق بالكتب العقائدية ، فهي عبارة عن بحث
نظري مجرد .

كلمة اخيرة ، وهي ان طابع « المذهب الاشراقي » المميز له هو
« الثنائية » ولكن ليست ثنائية المجوس التي تقول بوجود اكثر من
قوة واحدة فاعلة في العالم ، بل الثنائية الاسلامية التي تقوم على
اساس ان هناك خالقا ومخلوقا لا يتحدان . وتوضح هذه الفكرة في
قصة الغربة القريبة حيث ان اتصال النفس بمصدرها ليس فناء
تام في ذات الملاك حيث تنتهي قطبية الكائنين في وحدة بسيطة ، بل
انه اتصال لا يلغي الهوية ولا يلزم بالاتحاد (٢٣) .

وعودة سريعة الى السبب الذي تدرع به الفقهاء لادانة
السهورودي (٢٤) انه كان « ادعاء النبوة » . فالنبوة قد تتصل بالالوهية ،
قد تشاهدها ولكنها لا تصح هي ذاتها . ولعل الفكرة تتضح اكثر اذا
ما قارنا التهمة التي ادانت السهورودي بالتهمة التي ادانت الحلاج
(٢٤٤ - ٢٠٩ هـ = ٨٥٨ - ٩٢٢ م) فالسهورودي لم يكن في « مقام »
يحملة على القول : « انا الحق » . (٢٥) .

دمشق

- (١٩) التلويحات اللوحية والعرشية - للسهورودي - نشرة كوربان
- التلويح الثالث - بحث في ترتيب الوجود .
(٢٠) راجع التلويحات في الصفحات : ٩٣ ، ١٠٨ ، ١١١ . وراجع
ايضا المطارحات في الصفحات : ٤٦٣ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ .
(٢١) راجع كتاب اللمحات للسهورودي - مقدمة معلوف - حاشية
١ - ٢ ص ٢٨ .
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٥٣ .
(٢٣) راجع حول هذه الفكرة ايضا كتاب « المشارع والمطارحات »
للسهورودي ، ص ٥٠١ .
(٢٤) البستان الجامع - للممد الاصفهاني - ص ١٥٠ .
(٢٥) دراسة عن المنحى الشخصي لحياة الحلاج ، بقلم ماسينيون ،
في مجلة الله حي ، عدد رقم ٤ ، ١٩٤٥ م .

لابن سينا ، نشرها كوربان ضمن « مجموعة دوم مصنفات شيخ اشراق
... » نهران سنة ١٩٥٢ م .

٦ - رسالة في اعتقاد الحكماء - نشرها كوربان ضمن المجموعة
السابقة سنة ١٩٥٢ .

وهناك رسالة اخرى ، ليست من مؤلفات الشيخ ، وانما ترجمتها
الى انفارسية وهي رسالة الطير لابن سينا ، وقد نشرها شبيسوخنك
ضمن كتاب ثلاث رسائل سنة ١٩٢٥ .

مجموع هذه المؤلفات يشر للباحثين معرفة اساس المذهب الاشراقي .
يقول السهورودي في مقدمة « حكمة الاشراق » :

« وهذا سياق اخر وطريق اقرب من تلك الطريقة (اي طريقة
المشائين) وانظم واضبط واقل اعتابا في التحصيل ، ولم يحصل لي
اولا بالفكر ، بل حصل بامر اخر ، ثم طلبت عليه الحجة حتى لسو
فطعت النظر عن الحجة مثلا ، ما كان يشككني فيه شكك » (١٦) .

فعلى هذا ، تقوم فلسفة السهورودي في مقابل الفلسفة المشائية ،
وبينما تنتهج الاولى طريق الكشف والسوق يضاف اليها الحجة
والبرهان تنتهج الثانية سبيل الاستدلال العقلي والحجج المنطقية فقط .

والبناء الفلسفي للاشراق يقوم على اتخاذ « النور » مبدأ وجوديا
اوحده واما الظلام فهو نقيض النور ، فليس ثمة مبدآن متكافئان
يصطرعان كما تدعي المانوية « وهذه ليست فاعسده فكرة المجوس
والحامداني وما يقضي الى الشرك بالله تعالى وتنزهه » (١٧) .

« والذي يعرض للذهن من هذا التحليل المبني ، هو ان الحقيقة
هنا تتخذ النور اساسا لها ، فكما يقوم الوجود في المذاهب المادية
على اعتبار المادة اساسا للحقيقة الموضوعية ، وعلى اعتبار النفس
اساسا ومعيارا للحقيقة عند المدرسة المثالية الذاتية ، والله او الواحد
عند المثالية المتعالية ، واتحاد الروح والمادة عند الوجودية المعتدلة التي
تتمثل في الارسطية ، فكذلك تتخذ الحقيقة هنا النور اساسا لها ومبدأ
مشيدا للوجود » .

ومن ذلك قول السهورودي : « والاختلاف بين متقدمي الحكماء
ومتأخريهم انما هو في الالفاظ ، واختلاف عاداتهم في التصريح
والتعريض وتلك قائلون بالعوالم الثلاثة متفقون على التوحيد ، لا نزاع
بينهم في اصول المسائل والمعلم الاول اسطوطاليس وان كان كبير القدر
عظيم الشأن بعيد الفؤاد تام النظر لا يجوز المبالغة فيه على وجه
يقضي الى الازراء باستاذه ومن جعلتهم جماعة من اهل السفسارة
والشارعين مثل افاناذيمون وهرمس واسقليتوس وغيرهم » (١٨) .

وهذا النص ينطبق على السهورودي بالقياس الى مذاهب المشائين ،
فالواحد او واجب الوجود يسميه السهورودي « نور الانوار » ، واول
صادر عن واجب الوجود وهو العلول الاول وهو همزة الوصل بين
الواحد والفيوضات التالية عند المشائين ، ويسمي السهورودي اول
صادر عن نور الانوار باسم « النور الاكرم او النور العظيم » وربما
سماه الفهلوية « بهمن » وهذا الصادر الاول لا كثرة فيه اصلا ولا
تلقح المادة به من اي وجه .

والموجودات تقسم الى واجبة وممكنة عند المشائين ، وعند السهورودي
تقسم الى موجودات نورية وموجودات ظلمانية او برازخ ظلمانية .

والمذهب الاشراقي ليس مستقلا عن المذاهب التي سبقته في المحيط

(١٦) حكمة الاشراق ، ص ١٠ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ١١ .

(١٨) المصدر السابق نفسه ، ص ١١ .